DOI:10.52113/uj05/022-15/555-565 ISSN : 2072-6317(P) - 2572-5440(O)

جامعة المثنى / كلية التربية للعلوم الانسانية
مجلة اوروك للعلوم الانسانية
موقع المجلة : www.muthuruk.com

الشيب في شعر المخضرمين ، قراءة تأويلية

حسن سعد لطيف *

جامعة المثنى / كلية التربية للعلوم الإنسانية / قسم اللغة العربية

معلومات المقالة

تاريخ المقالة :

تاريخ الاستلام: 2022/1/23

تاريخ التعديل : ------

قبـول النشـر: 2022/1/25

متوفر على النت: 2022/4/11

الكلمات المفتاحية :

الشيب

شعر المخضرمين

قراءة تأويلية

الملخص

في شعر المخضرمين تجارب جمة ومناهل مترعة لمن يرد حياضها صاديا باحثا عن الإبداع والجمال ، فينهل منها حد الارتواء ، وفي كل قراءة جديدة لهذه التجربة الخصبة تنكشف أشياء جديدة بين يدي القارئ ، كأنه يقرأها لأول مرة حتى وإن أشبعت بحثا ، لكثرة الظواهر التي شغلتها أشعارهم التي تعد معينا لا ينضب ، وكانت ظاهرة الشيب من الظواهر التي برزت في هذا الشعر القديم من شعرنا العربي ، فقد عبر كثير من الشعراء عن معاناتهم مع الشيب ، وكثرة آلامهم من عوامل الضعف والكبر ، وكانت لهم رؤاهم الخاصة حول ظاهرة الشيب .

©جميع الحقوق محفوظة لدى جامعة المثنى 2022

المقدمـة:

الشيب في اللغة

جاء في معجم (الصحاح في اللغة) مادة (شيب) الشيب والمشيب واحد . وقال الأصمعي : الشيب بياض الشعر ، والمشيب دخول الرجل في حد الشيب من الرجال ، قال ابن السكيت في قول عبيد :

تَصْبُو وأنَّى لك التصابي والرأسُ قد شَابَهُ المشيبُ

يعني : بيَّضه المشيب ، وليس معناه خالطه ، وأنشد :

قد رابه ولمثل ذلك رَابَه وَقَعَ المشيبُ على السواد فشابَه

أي بيض مسوده ، وشيب السوط معروف عربي صحيح . وتقول : باتت فلانه بليلة شيباء ، بالإضافة إذا قضت ، وباتت بليلة حرة إذا لم تقتض ، ((وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا)) [1] على التمييز . وقال الأخفش على المصدر ؛ لأنه حين قال : اشتعل كأنه قال شاب فقال شيبا ، والشِيب جمع أشيب ، والشِيب أيضا الجبال يقع عليها الثلج فتشيب به ، وقولهم : شيب شائب ، إنما هو كقولهم : ليل لائل وموت مائت ، وعن (الكسائي) : شيّب الحزن رأسه وبرأسه ، وشيبه الحزن ، وأشاب الرجل أي شاب أولاده ، والشيب بالكسر : حكاية أصوات مشافر الإبل عند الشرب . [2]

الشيب في شعر المخضرمين

يعد الشيب من أبرز الظواهر الشعرية التي التفت إليها الشعراء منذ القدم واتخذت سبيلها إلى أشعارهم لما لحظوه من فعل التغيرات التي تطرأ على أجسادهم وأنفسهم ، فقد بكى الشعراء ذلك الشباب الذاهب لما رأوا بياض الشيب يغزو رؤوسهم ، وقد نلحظ كثرة الشعراء الذين تجلت لديهم هذه الظاهرة إلا إننا سنكتفي ببعض نماذج منها مما يغني هذه الدراسة في هذا البحث ، ومع كثرة النصوص الشعرية كان لزاما

*الناشر الرئيسي : E-mail : hasinsaad454@gmail.com

علينا أن نتوخى الدقة في اختيار النماذج التي تمنح هذه الدراسة فائدتها المتوخاة ، وتهيئ لنا اطمئنانا نفسيا لصحة تصوراتنا وآلية بحثنا في قراءة تلك النصوص الشعرية وما انطوت عليه من رؤى وأفكار ، سواء كشفتها وأفصحت عنها أو استترت بين طياتها ، وليس لنا بالإمكان وحجم البحث استقصاء كل ما تناولوه لكننا سنأخذ بنتاجاتهم بشكل عام من أجل وقفات سريعة لنقتطف من بعض تلك الثمار اليانعة ليعبق موضوعنا بعطرها الفوّاح .

ولعل أكثر ما تميز به شعر الشيب لدى المخضرمين هو ذهاب الشعراء إلى تبني نوع من الفلسفة الخاصة في النظر إليه ، فقد امتزج كثيرا هذا الشعر بالحكمة ، فضلا عن المقدرة الفنية لدى الشاعر ، فقد تلون هذا الشعر بفنون البلاغة والبديع وإن لم تخرج معاني الشيب كثيرا عما كانت عليه نظرة الشعراء ممن سبقهم من الجاهليين ، فلم تزل هذه المعاني تتراوح بين الشكوى من الشيب وتمني عودة الرجوع إلى الماضي وما فيه من أحلام الصبا ومرابعه ، وبين اتخاذ الشيب حجة من أجل طرق باب المواعظ والعبر التي تجد سبيلها مع كبار السن من الشعراء .

في شعر المخضرمين تنوعت دلالات الشيب بين الخشية من تقدم العمر وضعف القوى ، وبين التحسر على الشباب وأحلام الصبا وبكاء الماضي السعيد ، وبين الحكمة والتجربة التي يضيفها الشيب بوصفه عاملا من عوامل الحلم وسعة المعرفة والدراية ، وقد ذكره معظم الشعراء وأسهبوا في وصفه ووصف معاناتهم خلاله ، فهذا حسان بن ثابت لا يقاوم رغبة البكاء عند فراق الأحبة على الرغم من أن الشيب يغزو مفارقه :

وكدتُ غداة البين يغلبني الهـوى
أعالجُ نفسي أن أقوم فأركبا
وكيف ولا يُنسى التصابي بعدما
تجاوز رأس الأربعين وجربا
وقد بان ما يأتي من الأمر واكتست
مفارقهُ لونا من الشيب مغربا [3]

قد تعلن ذات الشاعر في لحظة التذكر المؤلمة – عندما لا ينسى التصابي - عن ضياع تلك الحقبة السعيدة من أيامها ، واليأس من ترقب عودتها ، لأن تلك الأيام الضائعة هي أيام الشباب بقوته وجموحه ، فيكون التحول الذاكراتي بالرجوع إلى ذلك الزمن الممتلئ حضورا وصخبا مطلوبا لغاية في النفس ، لكن ذات الشاعر ترجع خائبة لأن ما مضت من أجل استرجاعه لم يكن إلا رغبة مضمرة في النفس ما كان لها أن تتحقق على أرض الواقع ، وتكون تلك الذكريات – على الرغم من حضور الأنس والسعادة فيها – مدعاة لاستشعار الحزن والبكاء على ما مر من أحلام الصبا ، فيشكو حسان من حالة الضعف التي انتابته عند فراق أحبته حتى أصبح لا يقوى على القيام والركوب ، وما كان هذا الضعف إلا بسبب عدم قدرته على تحمل هذا الفراق الممهد لوداع الأحبة بحيث يتعذر اللقاء ، لكنه يستغرب من نفسه هذا الأمر ، فكيف يشكو التصابي ويعاني آلام الهوى وقد تجاوز الأربعين ، ومرّ بتجارب عدة تجعله قادرا على اللامبالاة لمثل هذه الحوادث ، وكيف يشكو التصابي وقد انتهى الأمر ووجب الفراق ، وليس هو في سن النزق والطيش حتى يعاني مرارة العشق في مثل هذا السن ، لقد اكتسى شعر مفرق رأسه لونا أبيض غريبا لم يعهده فيه ، وهذه علامة الكبر التي لا يتلاءم معها التعلق بحبائل الهوى وبكاء الحبيبات الراحلات ، لأن المشيب داعية التعقل والتفكر بما هو أسمى وأرفع من هذا البؤس الذي يعانيه .

أما لبيد بن ربيعة فيتخذ موقفا آخر أكثر حدة وصرامة في مواجهة الشيب بما يدعوه من ترك لوازم الهوى ونوازعه ، فقد عيرته سليمى بالشيب الذي غيّر جمال الشكل في عينها ، لكنه - بعين الشاعر - لم يغيّر همة الرجل الفارس الصابر المثابر الذي لا تثنيه الخطوب عن مقارعة الزمن في طلب المجد .

قالت غداة انتجينا عند جارتهـا
أنت الذي كنتَ لولا الشيب والكبرُ
فقلتُ ليس بياض الرأس من كبرٍ
لو تعلمين وعند العالم الخبـرُ

DOI:10.52113/uj05/022-15/555-565

لو كان غيري سليمى اليوم غيّرهُ

وقع الحوادث إلا الصارم الذكرُ

ما يمنع الليلُ مني ما هممتُ بهِ

ولا أحارُ إذا ما اعتادني سفـرُ

إني أقاسي خطوبا ما يقوم بها

إلا الكرامُ على أمثالها الصُبُـرُ [4]

في هذه اللحظة التي تستغرب فيها المرأة ما حلّ بالشاعر من تغيرات - فلم يعد كما كان عهده في السابق من جمال المنظر – ترى ذلك قد حدث بسبب الشيب والكبر ، فينبهها إلى أنها غير عالمة بخبر ما جرى له ، فليس هذا الشيب عن كبر ولكنه خطوب الأيام وحوادثها ، ولو أن هذه الأحداث جرت لآخر غيره لما قدر على تحملها ، فلا يقوى عليها إلا الفحول من الرجال ، وهو لن يثنيه عن عزمه سواد الليل ولا يحار إذا أراد الركوب للسفر لأي خطب ، فطالما اعتاد منازلة الخطوب وأهوالها التي لا يقوى على احتمالها إلا الكرام الصابرون أمثاله ، لذلك لم يعد من همه أن يكون في ريعان الشباب وبريقه في نظرها ، فقد جعلته الأيام لا يأبه إلا لمكافحة نوازل الدهر إذا حلت بساحته وقد عركته السنون بنوائها وتجاربها ،

إن معطيات الفكر المعاصر لم تعد تنظر إلى الخطابات بوصفها تصورات تطابق موضوعات ، أو بوصفها كلمات تقول أشياء ، وإنما تنظر إليها بوصفها أحداثا مقالية ووقائع فكرية ، وليس من المجدي أن نبحث في الألفاظ بكونها حقولا دلالية تمثل تصورات معقولة أو غير معقولة ، بل يكون البحث عن المعنى المختبئ فيها والبحث عن أسرارها ، ولا يتم الكشف عن أسرارها إلا بتأويلها ، أي بالانفتاح على آفاقها الدلالية بالنظر إلى المعنى الذي تختزنه ، وباستكشاف الأبعاد المجهولة التي تنطوي عليها [5] ، وعليه فإن هذه الصورة المنعكسة في وجه الشاعر قد قلبت حلم الزمن الماضي الجميل حينما كان مرغوبا فيه من الحسان وحولته إلى رؤيا مفزعة ، فهذا الحلم الجميل تحطم على وقع الحقيقة المرة ، وهذه الخطوب التي تتابعت وتركت آثارها على صورته لم يدركها إلا بعد وجود المرأة - في تلك اللحظة – كاشفا فعليا لصورة الذات الحقيقية ، بعيدا عن حلم الشباب وعنفوانه وصخبه .

وهكذا فليس كل الشعراء يشتكي الشيب رغبة في عودة الشباب وما كان خلاله من سعادة ومتع كثيرة ، فمثلما رأينا لبيد بن ربيعة يشكو فعل الزمان وريبه مما أسهم بتعرضه للشيب مبكرا ، كذلك النابغة الجعدي يحذو حذوه في ذلك .

سما لك همٌ ولم تطربِ

وبتّ ببثٍ ولم تنصـبِ

وقالتْ سُليمى أرى رأسهُ

كناصيةِ الفرسِ الأشهبِ

وذلك من وقعات المنون

ففيئي إليكِ ولا تعجبي [6]

إن سليمى تعلم أن رأسه لن يشيب – كما هو الحال مع كثيرين على خلافه – بفعل التصابي ، والشكوى من هجر الغواني وابتعادهن عنه ، ويمكن أن نلحظ أن معظم الشعراء لا يستهويهم الغزل ولا يطربون لعشق النساء إلا في هذه الفترة التي يبدأ فيها المشيب في الظهور ، وكأنها مفترق طريق بين عصرين ، عصر الشباب بما فيه من الفحولة والقوة ، وعصر المشيب بما يحمله من دلائل التضعضع وضعف الهمة ، لذلك يمضي الشعراء - في محاولة يائسة - إلى تدارك ما فاتهم من ضروب الهوى ، لعلهم ينالون من بقاياها شيئا ، لكن سليمى تعلم علم اليقين أن رأسه صار كناصية الفرس الأشهب من شدة بياض الشعر بسبب وقعات المنون ، فطالما فقد كثيرين من أحبة قلبه وشقائق نفسه ، فلم يعد يألم لشيء أو يبكي على شيء بعد أن فقد هؤلاء الأحبة ، أما البكاء على هجر النساء ومفارقتهن فهذا ليس من ديدنه ، كيف لا وهو القائل :

وبيضاءَ مثلَ الرئمِ لو شئتُ قدْ صَبتْ

إليّ وفيها للمحاضرِ ملعـبُ

تجنبتها إنّي امرؤ في شبيبتـي

وتلعابتي عن ريبة الجارِ أنكبُ [7]

فقد كان – وهو في مقتبل صباه - يأنف من أن يرتاب الجار من أمره ، ولو شاء لجعل كل خريدة بيضاء تصبو إليه وتطلب وده ، لكنه اجتنب ذلك الأمر في شبيبته ، فكيف يحدثه الآن وقد تخطى مرحلة الشباب تلك ، لقد كان النابغة ممن ينظر إلى هذه الحياة نظرة حكيم مجرب ، يأخذ منها الدروس والعبر وينظمها شعرا حتى تكون موعظ للناس ، لمن رغب أن يتعظ ، وقد ذكر الشيخوخة والشباب فشبهما بأغصان الشجر التي تبدأ ناضرة مزهرة ثم تنتهي وقد عادت صفراء منكسرة .

وما البغيُ إلا على أهلــهِ

وما الناسُ إلا كهذي الشجرْ

ترى الغصنَ في عنفوانِ الشبابِ

يهتز في بهجاتٍ خضـرْ

زمانا من الدّهر ثمّ التــوى

فعادَ إلى صفرةٍ فانكسـرْ [8]

يخيم على هذه الأبيات النفس الحزين المقنع بالحكمة ، فالشاعر . على الرغم من موقفه اليائس وأمله الضائع . يوحي لنا بأن زمنه الجديد لا يخلو من لذة هي لذة التفاخر بالعفة والابتعاد عن الفحش ، كأنه . وهو يرثي ذلك الشباب الهالك . يتباهى بما كان فيه من تعقل وبصيرة لا يتوصل إليها إلا من كان من الحكماء مثله ، ولكن يبقى طابع الحزن يسود أجواء قصيدته حتى وإن حاول أن يغطيه بحكمة الشيخ المجرب .

ومن المخضرمين عبدة بن الطبيب الذي يرى أن الشيب يشغل عن الصبابة ، فلا جامع بينهما ، لذلك يناشد نفسه أن يضرب صفحا ويطوي كشحا عن تلك شغلت قلبه لمدة من الزمن ، ولا يبكي إثر ترحالها ، فلا يليق به البكاء بعد إذ فارقته ، ففي ذلك – حسب رأيه – عدول عن جادة الصواب ، يقول :

إن التي ضربتْ بيتاً مهاجرة

بكوفة الجند غالتْ ودّها غولُ

فعد عنها ولا تشغلك عن عملٍ

إن الصبابة بعد الشيب تضليلُ [9]

عندما يتعرض الشاعر في لحظات الزمن العصيبة إلى اللوم بسبب عجزه وعدم قدرته على الوقوف بوجه عاديات الزمن ، فإنه – في لحظة اليأس – يستعين بطاقته الشعرية ليثبت لمن يلومه مقدار القوة والعزة التي كان عليها قبل هذا اليوم ، وهي حيلة يلجأ إليها الشاعر في لحظة الإحساس بوطأة الكبر وغلبته وعدم تمكنه من مواجهته ، فيتخذ من مقدرات الشعر سلاحا يواجه به سطوة الحاضر ، وهو نوع من الهروب المؤقت عندما يجد في سلسلة أحداث الماضي ملجأ يلوذ به ويشعر فيه بشيء من الطمأنينة والسكينة ، وقد اضطر الشاعر إلى اتخاذ هذه الوسيلة في التمسك بحبائل الماضي عندما كان صاحب لذة لهن لينقذ نفسه من مغبة الزمن ، ولكن ذلك العهد تغير إذ يقترب الآن من نهاية العمر ، والناس همهم الحياة ولا تبالي بمن يصل إلى أرذل العمر .

ولطالما رأينا الشعراء – لاسيما ذوي الحكمة منهم – يعدل عن طريق الصبابة إلى ما هو أسمى وأرفع من ذلك ، إذ لا يجدون في مجاراة الهوى وملازمته مع ظهور الشيب شيئا من التعقل في ذلك ، وإن كان بعضهم تظل في نفسه حسرة من ذلك ، فيرثي شبابه الضائع ، ويرجو في بعض اللحظات عودة شيء من تلك الساعات الجميلة التي قضاها مع الحسان في ريعان صباه ، لذلك نجد عمرو بن شأس يتذكر ليلى بعد أن تناساها شطرا من الزمن ، فلا هو قضى من حبها وطرا ، ولا الدهر أفنى ما ظل من بقايا ذكرياتها .

تذكّرَ حبّ ليلى لاتَ حينا

وأمسى الشيبُ قد قطعَ القرينا

تذكّر حبّها لا الدهرُ فـانٍ

ولا الحاجاتُ من ليلى قُضينا

وكانتْ نفسهُ فيها نفوسـاً

إذا لاقيتها لا يشتفينــا

وقد أبدتْ لهُ لو كان يصحو

DOI:10.52113/uj05/022-15/555-565

عشيّة عاقلٍ صرما مُبينـا [10]

يقول الأستاذ الدكتور محمود الجادر : (تفتتح لوحة الشيب لضرب من الحزن اليائس من استرجاع ما كان من فورات الشباب التي طواها الزمن ، وإن بدا أن الشاعر قد يحاول دفع شبح المأساة من خلال التأرجح بين اليأس من عودة الماضي والقناعة بما يمنحه الحاضر من سمات الرجولة وفروسية الخلق) [11] ، إن التذكر هنا يعبر عن حالة الاستسلام الحسي لمشاعر الحب والرغبة ، ففي هذا الإعلان الصريح – بعد مرور السنين واجتياح الشيب – لرغبات النفس التي ظلت حبيسة الصدر فيه راحة وإزاحة لثقل الهموم التي أرهقت النفس وأثقلت الذاكرة بتراكماتها في طي الكتمان ، لأن الشاعر علم – بعد تلاحق الأزمنة – أن الدهر لا يفنى ، وأن النسيان لن يأتي ، وأن رغبات النفس من عشق ليلى لم ولن تنقضي ، إلا أن الانقطاع عنها جعله يعيش هذه العزلة ، ويضطر إلى هذه الاستكانة بعد استسلامه وعجزه عن مواصلة عشق ليلى الذي أضناه وأسقمه ، وهذا الاسترجاع الذهني للمشاعر الغائرة في أعماق النفس والإفصاح عنها في سن متقدمة بعد أن (قطع الشيب القرين) يوحي لنا بأن تلك المشاعر لم تتعرض للاندثار ، بل هي مشاعر حية قادرة على العيش والتفاعل مع الحياة في أي موضع وفي أي وضع ، ولن تتأثر بحالات النفس وتحولاتها ، لأن وجودها الطبيعي يعني مصاحبتها لذاكرة الشاعر بفاعلية البقاء والاستمرار ، وإن أغلقت الذاكرة عليها نافذة الغياب إلى زمن معلوم ، إلا أن حضورها لن يتأخر وغيابها لن يدوم ، فما أن تجتاح الشاعر نشوة التذكر لتلك الساعات المفعمة بدفق العاطفة سينكسر قيد الصمت المطبق على تلك المشاعر .

إن ذات الشاعر تعلن عن تلاشي آمالها بضياع تلك الحقبة من الزمن التي تعني لها أوج السعادة ولذة الحياة ، وكأن الذات في حالة رثاء للنفس ، فتلك الأيام هي أيام الشباب الذي يعني القوة والفتوة والقدرة على العشق والتعلق بآمال الحياة ، لكن الزمن الحاضر هو زمن العجز والشعور بالوحدة وعدم القدرة على الاتصال بالنساء الحسان ، فلا عزاء إذن إلا بالرجوع عبر الذاكرة إلى زمن النشاط والقدرة على الصبابة .

وقد يكون للتذكر أسباب ترتبط ببيئة الشاعر وطبيعتها ، وبظروفه وأحواله الخاصة ، فيعمل وعي الشاعر بتتبع صور الذكريات وصولا إلى تلك الحقبة التي كانت تجمعه بأهل تلك الذكريات ، فيتذكر ذلك العهد الجميل الذي قضاه بجوارهم ، لكنه يشكو ما حل به من مرارة الحرمان وفقدان لذة العيش بجوار الأحبة ، وذلك غالبا ما يحدث وقد مضى الزمن مبتعدا وأخذ ما أخذ من روح الشاعر ومن جسده ، لذلك يصاب بالجزع وفقد كل ما يشعر بالأنس في هذه الحياة ، لاسيما وقد استلب منه خير سلاح يمكن أن يواجه به عوادي الزمن ، إلا وهو الشباب بعنفوانه وصخبه ، ولم يبق أمامه إلا أن يستسلم لمصيره المحتوم وقد ألبسه المشيب رداء الوهن وضعف الحيلة ، وفي مثل هذه الرغبة ينعى عمرو بن الأحمر أيامه الفانية مع صاحبته غُنية التي تزعم كثرة البياض بناصيته ، وقد طلبت الفراق إذ لا ترى فائدة من البقاء مع ذي الشيبة .

زعمتْ غنيّة أن أكثر لِمّتي

شيبٌ وهانَ بذاك مالمْ تـزددِ

لما رأتْ عرباً هجائن وسطها

مرحتْ وجالتْ في الصراخِ الأبعدِ [12]

لقد قررت أن تدع الشاعر في حيرة من أمره ، وإذ أنها اقتصرت في الحديث معه على التعيير بالشيب فقد هان الأمر عليه مالم تزدد في ذلك ، هنا يصبح البكاء أشد مرارة ولوعة ، إذ لم يعد لدى الشاعر حيلة أو وسيلة مع ما يلقاه من شدة الوجد ومعاناة الهوى وكذلك الضعف والهوان الذي استقر بجسده بسبب المشيب ، فمع وجود هذه الرغبة في الصبابة واستشعار لذتها في النفس إلا أن العجز والهرم يقعد به عن متابعة الهوى والانجراف بتياره إلى أبعد مدى ، لذا آثر هو أيضا أن يتركها بعد أن رأت صواحبها وراحت تتباهى بشبابها الغض وحق لها ذلك ، ويبدو أن الشاعر كان يصرف اهتمامه لأمر أكثر شرفا وعزة

DOI:10.52113/uj05/022-15/555-565

ورفعة من متابعة غنية وصاحباتها ، إذ أصبح اهتمامه منصبا على التغني بمفاخر المجد والكرم لديه ، بعد أن أصبح في سن متقدمة لا ينفع معها إلا البحث عن الذكر الحميد والعمل الصالح ، من خلال محاولته الفاعلة في بناء مجد لنفسه في الحفاظ على هويته المعبرة عن القناعة والرضا بالمقسوم ، والتمسك بالكرم مهما بلغت ذات يده من ميسور الحال أو من عسرها .

هل يُهلكني بسطُ ما في يدي

أو يخلدني منع ما أدخرْ

أو ينسأنْ يومي إلى غيرهِ

أنّي حواليّ وأنّي حذرْ

ولن ترى مثلي ذا شيبةٍ

أعلمُ ما ينفعُ ممّا يضرْ [13]

يبدو أن الشاعر عمرو بن أحمر الباهلي – في جلسة المصارحة هذه مع ذاته – في محاولة دؤوبة للدفاع عن نفسه في تمسكه بإحدى الخصال التي يراها سمة وجود ويراها غيره ظاهرة إسراف وهي خصلة الكرم ، فهو يرى أن دوام الحال من المحال وأن الفتى يتقلب بين الغنى والفقر لكنه لن يبقى على إحدى حالتيه وإن حرص على ذلك ، لأن الحياة ذات تقلب بين الحلو والمر ، ولن يبقى من ذكر الفتى إلا عمله الصالح الذي تلهج به ألسنة الناس بعده ، وأما حرصه على المال فلن يخلد ذكره مثلما أن بذل المال لن يهلكه ، وهكذا فلن يطيل عمره حرصه وحذره أو يؤخر أجله ، هذه خلاصة تجربته الذاتية يقدمها درسا لمن يرغب في أخذ الموعظة والنصح ممن هو في مرحلة الشيب ، فهو أقدر على فهم الحياة وتمييز ما ينفع فيها مما يضر .

وقد لا يبدو غريبا في حالة الاسترجاع الذاكراتي لزمن قديم أن الشاعر يندفع غالبا بنوع من الحنين إلى الزمن الماضي ، وكأن في ذلك نوعا من العزلة بين حاضرها المعيش وماضيها الغائب ، وهي حالة يتكئ عليها الشعراء هربا من واقع اللحظة ، وهي حالة إنسانية عامة بما أن الذات تقع تحت تأثير قسوة اللحظة وواقعها المؤلم ، فيكون الرجوع بالذاكرة تنقيبا عن لحظات تتسم بلذة العيش ومتعة النفس للخلاص من تأثير قسوة الزمن الحاضر على الذات ، على أن الشعراء أقدر على تجسيد هذه العودة الذاكراتية بما فيها من أبعاد نفسية لتحقيق فعل التحول بين الأزمنة وما يحتويها من معطيات وأحداث .

لذا يحتاج الشاعر - بين آونة وأخرى – إلى الإفصاح عما يدور في أعماقه من حالات الرغبة التي تستقر في طي الخفاء إلى أن تصطدم بمؤثرات خارجية تستفزها على الخروج من مكمنها ، ولا يجد القدرة اللازمة على مواصلة الكتمان ، لأن حالات التذكر التي أثارتها الطبيعة بمحفزاتها على الأرض أرغمت الشاعر على هذا البوح ، واستعادة الأحداث التي انطوت عليها الذاكرة ، وظلت حبيسة في زواياها قبل أن يستدعيها إلى الظهور ، هذا ما حدث للمخبل السعدي حين مر على ديار سلمى ، فذكرته رسومها بما كان يقبع في قرارة نفسه من تعلق قلبه بهواها ، وهذا التعلق لم يفصح عنه من قبل ، ولم يفارقه حتى بعد مضي كل ذلك الزمن .

ذكرتُ بها سلمى وكتمانَ حاجةٍ

لنفسي وما لا يعلمُ النّاسُ داخلُهْ

يظلُّ يؤسّيني صِحابِي كأنّني

صريعُ مُدامٍ باكرتهُ نواطِلـهْ

وما كانَ محقُوقا فؤادُكَ بالصّبا

ولا طربٌ في إثرِ منْ لا تواصلُهْ

وما ذكرُهُ سلمى وقدْ حالَ دونهَا

مصانعُ حجْرٍ دورُهُ ومجادلُـهْ

وإنْ لمْ يورّعني الشبابُ ولم يلحْ

برأسي شيبٌ أنكرتْهُ غواسلُـهْ [14]

حينما تطلع الشاعر في أنحاء المكان فإنه بحث عن ذاته أو هويتها المبعثرة في أرجائه ، ولأنه يفتقد جزءا مهما من ذاته كان يستوطن هذا المكان فإنها يسعى إلى استحضاره وإعادته إلى أرض الواقع ، وفي ظل الغياب الشامل والكلي لذلك الجزء المفقود منه

DOI:10.52113/uj05/022-15/555-565

فإنه يستعين بما احتفظ به في خبايا الذاكرة لتحويل ذلك الغياب إلى حضور ، وهي رغبة جامحة تمليها الحاجة المضمرة في النفس للامتزاج بالآخر الذي تمثله المرأة الغائبة ، هذه المواجهة بين الذات ووجودها وإن كانت في جزء منها هي الرغبة في الإفصاح عن مشاعرها الدفينة تجاه المرأة إلا أن الجزء الأكبر يتمثل في حاجتها إلى الحفاظ على ديمومة وجودها في ظل صراعها مع الزمن ، وما يقترن به من علائم الكبر .

لقد استدعى الشاعر ذكريات سلمى واستدعى معها تلك الرغبة التي ظلت رهينة النفس ، ولم يعلم الناس من مضمرات نفسه شيئا ، لكن الإعلان المفاجئ عنها أمام الصحب جعله يعيش حالة أشبه بالسكر ، مما اضطر أصحابه إلى مواساته ، لكنه يستغرب من وصول الأمر به إلى هذه الحال ، فلم يكن من قبل يأبه لأمور اللهو والصبا ، أو يتأثر بمواصلة من يهواه ، فكيف أصبح مولعا بتذكر سلمى بعد هذا الفراق الطويل ؟ وبعد أن حال بينه وبينها قصور اليمامة وأبنيتها ، ولكن الحقيقة أن حنينه لم يكن لسلمى بحد ذاتها ، بل لتلك الأيام التي كانت تعني له لحظات القوة والفتوة حيث لم تكن غاسلات شعره تنكر شيئا من بياض الشيب يلوح بمفارقه .

لذا يبقى استمرار الرجوع إلى فحص الذاكرة والبحث فيها عن أيام الصبا وذكرياتها العطرة يمثل حاجة الذات الدائمة إلى مقاومة الزمن في تقلباته ، ومحاولة القبض على تلك المشاعر المتأججة التي تثيرها حالة التذكر لأيام الفتوة والصبا ولحظاتها المفعمة حبورا وطربا ، لا سيما مع حضور المرأة رمزا لألق تلك الساعات ونشوتها ، إذ حين تعجز الذات عن استعادة شيء من بريق أيامها الرائعة وصخبها في لحظتها الراهنة تلجأ إلى بكاء تلك الأيام والتحسر على ضياعها إلى الأبد .

وحينما يواجه الشاعر ذاته من خلال التأمل الذي يشبه النظر في المرآة ويلحظ انعكاس الصورة المرئية فإنه يقوم بقراءة ذاته من الخارج ، ويبدأ حديث النفس عن طريق وصف الذات وتهميشها ، لأن الصورة الجديدة التي أحدثها التأمل اختزلت الوجود في المنظر الأخير الذي ينطوي على مشاعر الأسى ، لأن ملامح هذه الصورة تدنيها من القدر المحتوم الذي يعني نهاية الرحلة في عالم الوجود القائم على التعارض معها ، ويأتي حديث النفس لديه مقترنا بالانكسار المؤلم في بوح مأساوي ، ولذلك يرتاب النمر بن تولب من هذه التغيرات الطارئة حينما تأمل في ذاته فأنكرها ، لأن مقدار التحولات التي اقتحمتها أشعرته بالغربة ، كأن هذه الصورة لم تعد تمثل ذاته ، فيأتي الخطاب الذاتي – بعد ذلك – على هذه الهيأة من الانقسام والتشظي بين الشاعر وذاته .

لَعمْري لقدْ أنكرتُ نفسي وَرابني
مَعَ الشّيبِ أبْدالي التي أتبــدّلُ
فضولٌ أراها في أديميَ بعدَما
يكونُ كفافُ اللّحمِ أو هوَ أفْضلُ [15]

في لحظات التأمل الكبرى يكتشف الشاعر عمق التغيرات التي تطرأ على أحواله ، ولعل أهم ما يميز لحظات التأمل تلك أنها تأتي – في الأعم الأغلب – في حالات الشيب والعجز ، ففي تلك المرحلة المتقدمة من العمر يتنبه الشاعر إلى ما أحدثه من أفعال وأقوال ويبدأ بمحاسبة النفس عليها ، وفي هذه المرحلة تحديدا بدأ النمر بن تولب بمحاكمة النفس ومحاسبتها لما وجد تبدلا في أحواله ، ووجد في بشرته فضولا من الجلد على هيأة تجاعيد كانت في الماضي تكتنز لحما ، كل علائم الكبر هذه جعلته يتمنى السلامة والنجاة إذ كل تلك العلامات تشير إلى اقتراب النهاية المؤلمة ، الموت (وهو أمر خطير في مجتمع مرهف الإحساس بمشكلة الفناء ، لأن الطبيعة حوله لا تريه خصبا ممدودا بل تعاقبا سريعا من الخصب والجدب ، وهو كذلك يواجه الفناء في حروب طاحنة لا تكاد تهدأ . . . لكن فكرة الدهر كانت قاصرة عن حل كل ألغاز الفناء ، فهي تمثل القدر دون أن تصور فيه قوة عادلة لتطمئن إليها النفس ، وإنما الدهر قدر ظالم ، ومن هنا تسبب في فقدان التوازن النفسي للقائلين به إما تمردا وعنفا وإما استسلاما وعجزا) [16] .

DOI:10.52113/uj05/022-15/555-565

ونلحظ دائما في تأملات الشعراء لقضية الحياة والموت هذه النظرة المستقبلية لفناء الجسد في صراعه مع آلام الحياة من أجل البقاء ، لكن فلسفة الذات الواعية تميل دائما إلى عد هذه الحياة محطة عبور إلى عالم آخر يكون المصير فيه مجهولا ، فلا تكون صورة الحياة في نظر هذه الذات إلا منهلا يستقي منه الدروس والعبر لاستقبال المصير المحتوم ، وقد أعد له عدته ، لقد استسلم في نهاية الأمر وخشي من عواقب ما أحدثه من أحداث في سنوات الشباب ، حتى إن إحدى صواحبه (دعد) قد عجبت مما أقام عليه من طول مواكبة الجهل في تتبع خطى العذارى وهو في هذا العمر ، وقد أصبح شيخا عاجزا لكنه يفعل ما يفعل الفتية الصغار .

أهيمُ بدعدٍ ما حييتُ وإن أمتْ

فوا كبدا مما لقيت على دعـدِ

على أنها قالت عشية زرتها

هبلتَ ألم ينبت لذا حلمةُ بعدي

ألستَ بشيخ قد خطمتَ بلحيةٍ

فيقصر عن جهل الغرانقة المردِ [17]

فمبادرة الموت في بدايتها هي اشتياق لمعرفته بوصفه تعبيرا عن محاولة الإنسان التغلب على عزلته ، وما ينطوي عليه من امتداد للذات والوعي لكي يعرفا ما وراء حدودهما ، فالمعرفة الشعرية للموت تعني محاولة الذات أن تكون ذاتها ، وأن تجد اكتمالها ، وذلك يقتضي من الوعي أن يرى الموت أمامه وبشكله [18] ، وهذا التأمل بأحوال الذات وتقلباتها لدى الشاعر يشي بنوع من الإدراك الواعي لما يسكن ذاته من المشاعر الزائفة التي تمتزج بها في أحوالها المختلفة والمتغيرة ، فكان الأجدر بالشاعر أن ينتهي إلى نكران تلك المشاعر التي لم تعد تمثله ، وأن يعلن - في خطاب صريح للنفس - براءته من مشاعره الأولى ، إذ بعد هذه المواجهة الصريحة مع الذات يجب أن يكتشف أن تلك الذات السابقة لم تعد تمثله حقا ، ولكن يبقى – في حقيقة النفس – أنه يرغب في التصابي مع وجود هذا الشيب ، ومع الكبر الذي لا يلائم التصابي ، لذلك يشعر بالأسى فيقول :

تصابى وأمسى علاهُ الكبرْ

وأمسى لحمرةِ حبلِ غررْ

وشابَ ولا مرحباً بالبياضِ

والشيبِ من غائبٍ يُنتظرْ [19]

لقد كان يتمنى أن يدوم له ود الغواني ، وأن يظل متمسكا بحبائل وجدهن ، لكن أنّى له التصابي وقد علاه الكبر ، وأمسى حبل التمسك بغرامهن واهيا ، فطالما اغتر بطيب العيش أيام مواصلتهن ، أما وقد شاب وعلا رأسه البياض فقد أصبحت تلك الأيام مجرد ذكريات لا أمل برجوعهن ، وأصبحت الحقيقة الوحيدة التي يعيشها اليوم هي حقيقة الشيب الذي اجتاح رأسه ، فلا مرحبا به من غائب عاد بعد انتظار ولا سبيل إلى طرده .

ولعل خوف الذات وقلقها من تجربة التناهي المحقق المتمثلة بالموت ، هو قلق وجودي اشتغل عليه الإنسان طيلة تاريخه [20] ، وهذا الرعب من الموت يجعل الذات تلجأ – خشية من حضوره – إلى استعمال التمائم والرقى وطقوس أخرى تختلف من مجتمع لآخر لتحاشيه والفرار منه ، ولكن الإنسان كائن من أجل الموت ، ويمكن له أن يألفه ويجعل منه مشروعا منتظرا يحقق فيه ذاته قبل أن يصل إليه ، فهو آت لا محالة [21] ، لذلك يتجه الخطاب الشعري إلى موضوعات الرؤيا المتأملة التي ترتبط بإحساسات القلق من عجز الذات عن المواجهة وجهلها عما يمكن أن يصير إليه المصير بعد تلك السقطة الأخيرة في قبضة الموت ، فالشاعر يرى في (الشيب) رائد الموت ونذيره ، وأنه يوهن القوة ويضعف الهمة ويشوه الخلقة ويستنفر الخوف لديه .

هذا الحزن العميق لدى الشاعر هو الشعور بخداع المستقبل ، فعندما تأتي تلك اللحظة التي تفقد فيها الذات الشاعرة لذة الحياة ستشعر في ذلك الوقت بما يتمثل في اللحظة القادمة التي تهجم على الوجدان من حدة معادية ، فالخاصية المأساوية لتلك اللحظة تجعل الذات تكتشف واقعها مسبقا ،

وهذا يعني أن فكرة الانفصال هي المهيمنة في هذه القطيعة للوجود [22] ، ولا شك في أن صورة الماضي الزاهر بوجود الحياة في نعمائها ورخائها حينما يتواجد فيها الشباب الزاهر ستظل دائمة الوجود في وعي الشاعر الذي لا يريد أن يتخلى عن صورة الحياة الجميلة تلك ، لكننا – على أية حال – قد لا نرتضي مثل هذا الرضوخ والاستسلام في مثل ذلك الموقف الذي نفتقد فيه بريق الشباب ، فالاعتقاد بأن مسيرة الحياة يمكن أن تتوقف عند ذلك الحد الذي يصبح فيه الشباب جزءا من العدم أمر يرفضه المنطق السليم ، فلا يمكن أن يتخلى الإنسان عن طموحه وفاعلية عقله مهما بلغ من العمر ، إلا أننا يمكن أن نستوعب من الشعراء فعالية الحضور للحظات مميزة في ذاكرتنا تمكننا من مواجهة مصاعب الحياة ونوائبها ، لا أن ننظر إليها نظرة يائس قانط ، فقد أخبرتنا تجارب الشعراء أن الأيام في تقلباتها وتداولها لا يستقر لحال فيها قرار .

إن من ينعم النظر في محاور ما يطرقه الشعراء في هذا العصر حول ظاهرة الشيب يلحظ بوضوح مقدار الصورة الفنية المبتكرة عما كان عليه سلفها في العصر الجاهلي ، فلم يسعَ الشعراء إلى صورة نمطية تقليدية ، بل أصبحوا يشبهون الشيب بالنجوم اللوامع ، ويرون فيه سمة الوقار والحكمة ، كما لا يخفى جمال الصورة الفنية المرسومة بعناية فائقة من خلال دقة التصوير وبراعة البيان ، ولكن لا يخفى كذلك أن بعض الشعراء نهج طريق من سبقه في الحديث عن الشيب بوصفه عاملا حاسما في ابتعاد النساء عن الشاعر ، إذ طالما يتغنى الشاعر بنفسه بكونه محبوبا مرغوبا فيه من قبلهن ، لكن الشيب يصبح عامل طرد إذ ما وجدنه في شاعرهن ، لما فيه من دلالات ضعف القوى وفقدان بريق الشباب ونضرته .

الخاتمة :

فيما يتعلق بظاهرة الشيب في شعر المخضرمين عموما قد وجدنا أن الشاعر قد تعامل مع ظاهرة الشيب بوصفها ظاهرة زمنية لا يحبذها ، وقد رأينا أن معظم الأفكار كانت تنصب على نوع من الشكوى والتألم بسبب فقدان مرحلة الشباب التي تعد عزيزة على النفس ، وقد تمثلت معظم هذه الأفكار بالحنين إلى أيام الشباب وما كان فيه من متع حسية ، إذ أن تلك المرحلة هي مرحلة القوة الجسدية التي غالبا ما تستدعي إليها التفات العذارى واستمالة قلوبهن ، لذلك نلحظ أن معظم الشعراء يربط ظاهرة الشيب بضعف الجسد وقلة الحيلة في جذب انتباه النساء إليه ، وهذه تمثل أشد معاناة يمكن أن يعانيها الشاعر ، لاسيما أولئك الذين عرفوا برقة القلوب ورهافة الإحساسات والمشاعر ، ولكن يمكن أن نجد بعض الشعراء من ذوي الحكمة قد جعل من فترة المشيب مرحلة قيمة يؤخذ منها الدروس والعبر في الحياة ، فهذه المرحلة تمثل خلاصة تجربة الحياة بكل ما فيها من أيام حلوة ومرة ، وبعد ذلك فإنه يطرحها بين يدي مستمعيه ليأخذوا منها العبر والمواعظ .

لقد وردت لفظة الشيب في موضوعات متفرقة من قصائدهم بشكل ملفت للنظر ، إلا أنه لم يكن متفوقا على غيره من الأغراض الأخرى فلم يشكل مقدمة مميزة من مقدمات القصائد المتنوعة ، وذلك راجع إلى قلة الاهتمام به قياسا بالطلل والغزل غير أنه يرتبط بهما في كثير من الأحيان ، وذلك لأن الشباب مرحلة عزيزة من حياة الإنسان ، وحبيبة إلى قلبه ، قريبة من نفسه ، لا يتذكر منها إلا الأفراح والملذات والبهجة والدعة ، زاخرة بألوان السعادة والهناء والسرور ، وليس هناك أرق عاطفة وأصدق تعبيرا من الشاعر الذي يذكر أيام شبابه ، ويتحدث عن أيام زهوه وليالي صباه وأمانيه وذكرياته العذبة ، ويبكي على ركبها المودع ، ولاسيما عندما يشاهد الشيب يزحف بغير رحمة على رأسه فيغطيه بأكوام من اللون الأبيض ، وتقنعه بخيوط الأكفان البيض ، وعلى قوى شبابه التي تنهار ، وأطرافه التي تعجز عن مد العون إليه من الخور ، وإذا كل آماله الشواهق تتدهور إلى الحضيض بغير رجعة ، فهو في مرحلة الشيب يشعر بالغربة ، ويحن لأيام شبابه ، ولأبناء جيله الذين فقدهم ، فيحن إلى تلك الأيام الخوالد في خزين الذاكرة .

الهوامش :

1 - مريم 4
2 - الصحاح ، للجوهري : 348 .
3 - ديوان حسان : 19
4 - ديوان لبيد : 83
5 - ينظر : المدخل الفلسفي للحداثة ، تحليلية نظام تمظهر العقل الغربي (ابن داود عبد النور) : 49 .
6 - ديوان النابغة الجعدي : 31
7 - ديوانه : 25
8 - نفسه : 52
9 - شعر عبدة بن الطبيب : 59
10 - شعر عمرو بن شأس : 59
11 - شعر أوس بن حجر ورواته الجاهليين : 258
12 - شعر عمرو بن أحمر : 52
13 - نفسه : 65
14 - ديوان المخبل السعدي : 59 – 60
15 - ديوان النمر بن تولب : 98
16 - الحياة والموت في الشعر الجاهلي (د. مصطفى عبداللطيف جياووك) : 196 .
17 - ديوان النمر بن تولب : 57
18 - ينظر : جماليات الشعر العربي ، هلال الجهاد : 317
19 - ديوان النمر بن تولب : 63
20 - ينظر : الوجودية في الجاهلية (فالتر براونة) مجلة المعرفة ، سوريا ، حزيران 1993 : 159 .
21 - ينظر : تلقي هيدغر في ديناميكية الفكر العربي المعاصر ، معركة المفاهيم (ويزة قلاز) مجلة الحوار الثقافي ، عدد خريف وشتاء 2014 : 11 .
22 - ينظر : حدس اللحظة (باشلار) : 20 – 21 .

المصادروالمراجع:

1- القرآن الكريم

2- تلقي هيدغر في ديناميكية الفكر العربي المعاصر ، معركة المفاهيم : ويزة قلاز ، مجلة الحوار الثقافي ، عدد خريف وشتاء 2014 .

3- جماليات الشعر العربي ، دراسة في فلسفة الجمال في الوعي الشعري الجاهلي : د. هلال الجهاد ، سلسلة اطروحات الدكتوراه 65 ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ط 1 ، 2007 .

4- حدس اللحظة : غاستون باشلار ، تعريب : رضا عزوز و عبدالعزيز زمزم ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، 1986 .

5- الحياة والموت في الشعر الجاهلي : د. مصطفى عبداللطيف جياووك ، دار صفاء للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن ، ط 1 ، 2012 .

6- ديوان حسان بن ثابت الأنصاري : ضبط الديوان وصححه : عبدالرحمن البرقوقي ، المطبعة الرحمانية ، مصر ، 1929 .

7- ديوان لبيد بن ربيعة العامري : حققه وقدم له : د. إحسان عباس ، سلسلة التراث العربي ، الكويت ، 1962 .

8- ديوان المخبل السعدي : جمع وشرح وتحقيق : د. محمد نبيل طريفي ، دار صادر ، بيروت ، ط 1 ، 2007 .

9- ديوان النابغة الجعدي : جمعه وحققه وشرحه : د. واضح الصمد ، دار صادر ، بيروت ، ط 1 ، 1998 .

10- ديوان النمر بن تولب العكلي : جمع وشرح وتحقيق : د. محمد نبيل طريفي ، دار صادر ، بيروت ، ط 1 ، 2000 .

11- شعر أوس بن حجر ورواته الجاهليين : د. محمود عبدالله الجادر ، منشورات جامعة بغداد 1979م .

12- شعر عبدة بن الطبيب : د. يحيى الجبوري ، دار التربية للطباعة والنشر والتوزيع ، بغداد ، 1971 .

13- شعر عمرو بن أحمر الباهلي : جمعه وحققه : د. حسين عطوان ، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، دمشق .

14- شعر عمرو بن شأس : د. يحيى الجبوري ، دار القلم ، الكويت ، ط 2 ، 1983 .

15- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية : أبو نصر اسماعيل بن حماد الجوهري ، تحقيق : أحمد عبدالغفور عطار ، دار العلم للملايين ، بيروت ، 1987 .

DOI:10.52113/uj05/022-15/555-565

16- المدخل الفلسفي للحداثة ، تحليلية نظام تمظهر العقل الغربي : ابن داود عبدالنور ، الدار العربية للعلوم ناشرون ، بيروت ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، ط 1 ، 2009 .

17- الوجودية في الجاهلية : فالتر براونة ، مجلة المعرفة ، سوريا ، حزيران 1993 .

Abstract :

In the poetry of pre-Islamic and pre-Islamic poets, there are many experiences for those who search for creativity and beauty in this poetry, and in every new reading of this poetic experience new things are revealed in the hands of the reader, as if he is reading it for the first time even if he is saturated with research, because of the many phenomena that their poems occupied, which is an inexhaustible resource. The phenomenon of gray hair was one of the phenomena that emerged in this ancient poetry of our Arabic poetry, as many poets expressed their suffering with gray hair, and their great pain from the factors of weakness and old age, and they had their own visions about the phenomenon of graying.